PW
PUBLISHERS WEEKLY®

الناشر الأسبوعي

جسر ثقافي من الشارقة إلى القارات

الطبعة العربية تصدر عن هيئة الشارقة للكتاب • السنة الثانية - العدد 16 - فبراير / شباط 2020

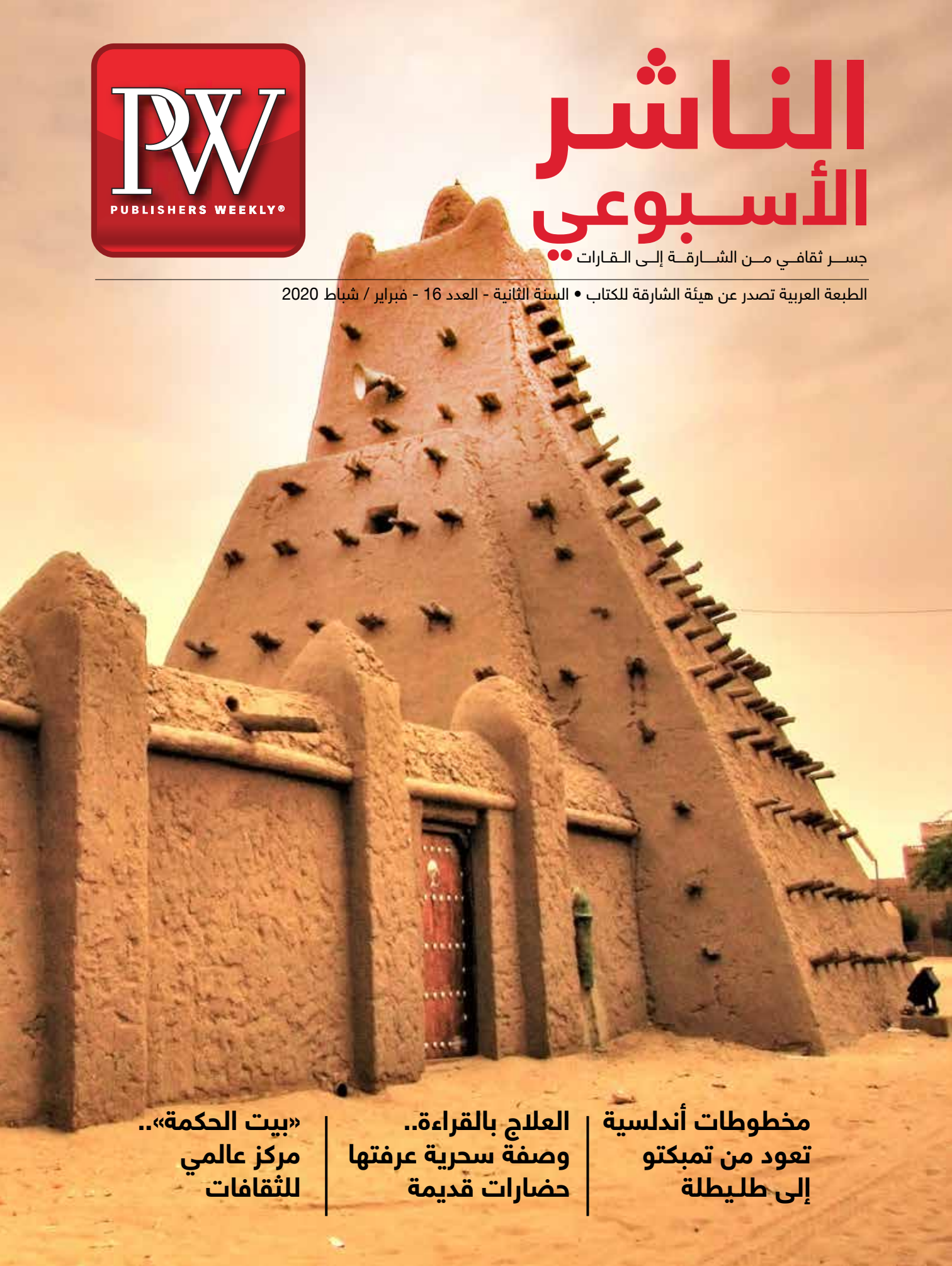

مخطوطات أندلسية تعود من تمبكتو إلى طليطلة

العلاج بالقراءة.. وصفة سحرية عرفتها حضارات قديمة

«بيت الحكمة».. مركز عالمي للثقافات

5 سرديات شرقية بين الفرنسية والإنجليزية

مأساة عالمنا الراهــن بعيون منفيّين

كتب: أنطوان جوكي

من لندن والرقّة حيث تتواجه مع الإرهاب شخصيات رواية الكاتبة الباكستانية كميلة شمسي، "حرائق"، إلى باريس حيث تكابد للبقاء على قيد الحياة شخصيات سردية الكاتب العراقي الكردي فرهاد بيربال، "فندق أوروبا"، مروراً بسيينا الإيطالية التي يحطّ بها الكاتب الليبي هشام مطر بحثاً عن السلوة والعزاء في الفن، في كتابه "شهر في سيينا"، وبباريس مجدداً حيث نتلقّى الاعترافات المؤلمة لشخصيات رواية الكاتبة اللبنانية هدى بركات، "بريد الليل"؛ ثمة حقيقة واحدة يسهلّ استخلاصها، ومفادها أن عالمنا اليوم في حال يرثى لها والمنفيين، لاجئين كانوا أم مهاجرين، هم أولى ضحاياه.

أنتيغون معاصِرة

الرواية السابعة للكاتبة الباكستانية البريطانية كميلة شمسي، "حرائق"، ليست نصّاً نقرأه لرفع معنوياتنا. إنها إعادة كتابة حاذقة للتراجيديا الإغريقية، "أنتيغون"، من منظور معاصر. كتابٌ معتم إذاً لكن ضروري لفهم وضع عالمنا اليوم، وهو ما يفسّر اختراقه لوائح جوائز أدبية أوروبية عريقة، وحصده جائزة "وومينز" البريطانية العام الماضي.

وكانت لجنة تحكيم جائزة "نيلي زاكس" الألمانية قررت سحب الجائزة الممنوحة للكاتبة في السادس من سبتمبر/ أيلول 2019، بسبب دعمها القضية الفلسطينية. وعلّقت كميلة شمسي على ذلك القرار بقولها إن "لجنة تحكيم الجائزة اختارت سحب الجائزة مني لدعمي حملة سلمية في الأساس، هدفها الضغط على الحكومة الإسرائيلية، ومن دواعي حزني أن تخضع اللجنة للضغوط، وتقوم بسحب الجائزة".

في رواية "حرائق"، هذا النص المؤثّر، الذي صدرت ترجمته الفرنسية حديثاً عن دار "أكت سود"، تروي شمسي قصة عائلتين بريطانيتين من أصول باكستانية. في العائلة الأولى، لدينا أسمى وأنيكا وبارفيز الذين يربطهم حبّ أخوي يقوى على كل شيء، بما في ذلك على الأخطاء الأكثر مأساوية. ولا عجب في ذلك بما أنهم كبروا بوحدهم بعدما فقدوا باكراً أمّهم، وقبل ذلك، والدهم الذي توفّي أثناء نقله إلى غوانتنامو بسبب نشاطه الإرهابي. في العائلة الثانية، لدينا الشاب أيمن الذي يعيش حياةً رغيدة في لندن، ووالده كرامات الذي تمكّن من تبوّء منصب وزير الداخلية في بريطانيا بسبب مواقفه السلبية الراديكالية من أبناء طائفته.

شخصيات رئيسية خمس تتقارب وتتباعد ضمن رقصة جهنّمية لن يخرج أحد منها سالماً. لماذا؟ لأن جميع هذه الشخصيات تتواجه في لحظةٍ ما مع الإرهاب الديني. بعضها ينزلق في اتجاهه ويحرق بسرعة جناحيه، وبعضٌ آخر ينجح في البقاء على مسافة منه لكن ليس من دون مشاهدة مَن يحبّ يقع في ثقبه الأسوَد.

في مطلع الرواية، تلتقي أسمى بأيمن في الولايات المتحدة الأميركية، حيث استقرّت لإتمام دراستها. ومع أنها ستحذر منه في البداية بسبب مواقف والده وثراء عائلته، لكنها لا تلبث أن تُعجَب به وتصادقه نظراً إلى براءته ورقّته. وحين يعود أيمن إلى لندن، يلتقي بشقيقة أسمى الصغرى، أنيكا، ويقع فوراً في غرامها. ومع أنها ستبادله هذا الحب وتجعله يختبر مشاعر لم يعهدها من قبل، لكن ما أن تكشف له قصة شقيقها التوأم، بارفيز، الذي يسعى إلى الفرار من مدينة الرقّة السورية، بعد التحاقه بسذاجة بتنظيم داعش، وتطلب منه التحدّث مع والده لتسهيل عودته، لا تنهار فقط علاقتهما الجميلة، بل تدخل أيضاً عائلتاهما في دوّامة مدمّرة تقودهما إلى المأساة.

خمسة أقدار إذاً تتقاطر في اتجاه مأساةٍ واحدة، ترصد كميلة شمسي لكل منها فصلاً في روايتها نتلقّاه على لسان واحدة من شخصياتها، ما يسمح لها بإجراء مقابلة مثيرة وكاشفة بين وجهات النظر المختلفة لهذه الشخصيات. وفي هذا السياق، تتبنّى إيقاعاً سردياً متحوّلاً، تارةً هادئاً وتارةً محموماً، مستخدمةً جُمَلاً تارةً طويلة وتارةً قصيرة ومجرّدة من الأفعال، غالباً بصيغ استفهامية لتجسيد ضيق أو ضياع شخصياتها. والنتيجة؟ عالمٌ من الإصداءات تتلامس الأقدار فيه ثم تتباعد لتعود فتتلاقى بشكلٍ أفضل، ونصٌّ صائب ومؤثِّر على المستوى الإنساني، يخوض بمهارة في مواضيع راهنة عسيرة، أبرزها كواليس السياسة في أوروبا، وبريطانيا تحديداً، أسئلة الهوية بكل تعقيداتها، الطريقة التي اعتمدها مجنّدو تنظيم داعش للإيقاع بشبّان أوروبيين يعانون من حالة ضياع، والطرق المعيبة التي تتعامل بها الحكومات الأوروبية مع هؤلاء الشبّان، معظمهم مسلمون، وتتمثّل في سحبها منهم هويتهم الأوروبية ومنعهم من العودة إلى ديارهم حين يدركون خطأهم ويعبّرون عن رغبتهم في ذلك.

أما الأمثولة التي تسيّرها الكاتبة كميلة شمسي على طول الرواية، فمفادها أن عالمنا اليوم لم يعد قادراً على التعامل مع المشاكل والأزمات التي يواجهها، وأقل شرارة، عاطفية كانت أم سياسية، باتت تتحوّل إلى حريقٍ ينجب بدوره سلسلة حرائق يتعذّر إخمادها.

الفنّ الشافي

بعد كتابه "العودة" (2016) الذي تناول فيه عملية خطف والده من مصر على يد رجال القذافي وتواريه في ظروف مشبوهة، وحصد جائزة "بوليتزر" العريقة، يذهب بنا الكاتب الليبي الأنغلوفوني هشام مطر في كتابه الجديد، "شهرٌ في سيينا"، إلى هذه المدينة الإيطالية التي قصدها بحثاً عن السلوة والعزاء في الفن، وتحديداً في ثماني لوحات وجداريات تنتمي إلى مدرسة سيينا الفنية التي نشط رسّاموها بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر.

في البداية، يستسلم الكاتب لاستكشاف مثير لمدينة سيينا الخلابة، بساحاتها وحدائقها وطرقاتها الضيقة وقصورها وسورها؛ مدينة "حميمة مثل عقدٍ يمكن أن نرتديه حول عنقنا، ومعقّدة مثل متاهة"، تمنحه الانطباع بأنها "هي مَن يتحكّم بخطواتي ويحدد وجهة نزهاتي". بعد ذلك، ينطلق في عملية تأمّلٍ عميق في أعمال مدرسة سيينا، وأيضاً في الإيمان والحب، على خلفية قصة والده المأساوية التي تحضر بشكل مستمر على طول نصه. وفي هذا السياق، لا نعجب حين تستوقفه في متحف "القصر العام" سلسلة الجداريات التي رسمها عام 1338 الفنان الإيطالي أمبروغيو لورينزيتو (1290 – 1348) ومنحها العنوان "استعارة للحُكم الجيد أو السيئ ونتائجه"، فهذا العمل الضخم

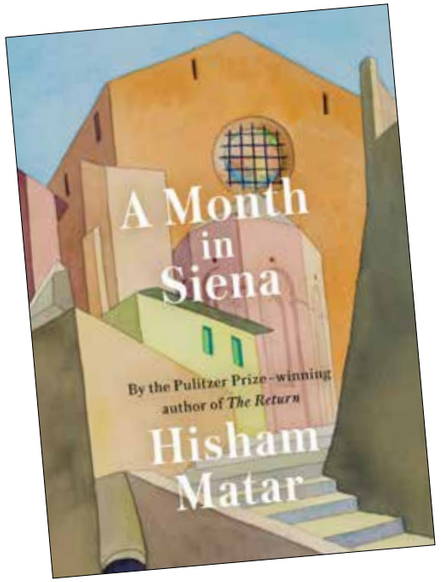

والمتعدّد المصاريع يشكّل "نشيداً للعدالة"، ونكتشفه مع الكاتب بالتفصيل بفضل نظرته المستنيرة، قبل أن نكتشف سائر الأعمال الفنية التي أثارت اهتمامه، دائماً بذلك الحسّ التفصيلي المدهش. ومن بين هذه الأعمال، لوحة كارافاغيو "داوود حاملاً رأس جليات"، "المأساوية بشكلٍ مثير للفضول"، ولوحة دوتشيو دي بوونينسينيا الدينية الملحمية "لا مايستا".

وأثناء هذه القراءة، لا يمتنع هشام مطر عن الانحراف من حينٍ إلى آخر عن موضوع سرديته الرئيس، اللوحات، من خلال استطرادات تقوده تارةً إلى مساءلة ميتافيزيقيا صالات العرض، وتارةً إلى اقتراح تقييم تاريخي منير لنتائج انتشار الطاعون بشكلٍ خطير في أوروبا، وتارةً إلى سرد زيارته لمقبرة تعكس ضخامتها "شهيّة الموت التي لا نهاية لها"، من دون إهمال حواراته مع أبناء المدينة ولقائه برجل أردني يعيش في سيينا لا يلبث أن يصبح صديقاً حميماً له.

باختصار، كتاب "شهرٌ في سيينا"، الذي صدر عن دار "بينغوين راندوم هاوس. فايكينغ" النيويوركية، وتزيّنه صورٌ لأعمال مدرسة سيينا الفنية، هو محاولة ناجحة من قبل كاتبه لسرد ما حصل بينه وبين مدينة سيينا ورسّامها وناسها، ولاستكشاف قدرة الفن على مواساتنا حين نكون في أمسّ الحاجة إلى ذلك، وعلى إنارة ليس فقط مشهدنا الداخلي الخاص. علاقاتنا بالآخرين، مشاعر الحب والأسى، العزلة التي نتخبّط فيها. بل أيضاً العالم الراهن الذي يحيط بنا.

اعترافات مؤلمة

لا عجب في نيل الكاتبة اللبنانية هدى بركات الجائزة العالمية للرواية العربية "بوكر" العربية عن روايتها الأخيرة، "بريد الليل"، ففي هذا النص الصاعق بسوداويته، الذي صدرت ترجمته الفرنسية حديثاً عن دار "أكت سود" الباريسية، تستعين الروائية بالخرافة لتصوير واقع موجود وراهن، وتمسك بهذا الواقع بتلك الرقّة والمهارة اللتين اعتدناهما في نصوصها السابقة.

نشير إلى أن الطريقة التي اعتمدتها الكاتبة لسرد قصّتها، أو بالأحرى قصصها، فريدة من نوعها. إذ لدينا خمسة شخصيات رئيسية نتلقّى قصة كلّ منها على لسانها، عن طريق الرسالة التي تكتبها. رسائل خمس إذاً لن تصل أيّ واحدة منها إلى الشخص الموجّهة إليه، بل ستقع صدفةً في يد واحدة من هذه الشخصيات التي، ما أن تقرأ فيها حياة واعترافات كاتبها، حتى تستسلم بدورها إلى طقس الكتابة، دائماً من دون قناع أو مواربة.

في البداية، لدينا لاجئ ممحون يتربّص به شخصٌ مجهول ويكتب في غرفة فندق للمرأة التي أحبّها رسالة تقع صدفةً في يد امرأة غريبة لا تلبث، ما أن تقرأ مضمونها الرهيب، أن تكتب رسالة لعشيق سابق من غرفة الفندق نفسها حيث تنتظر وصوله. لكن بدلاً من إرسالها إليه، ترميها في سلة المهملات في المطار، فينتشلها شخص مجهول وينطلق بدوره، إثر قراءتها، في كتابة رسالة لأمه يروي فيها فصول ماضيه المعتِم وما اقترفته يداه. لكن لدى محاولته الهروب من عناصر الشرطة، يخفي رسالته في مكان يسمح لامرأة تائهة باكتشافها فتقرر على ضوئها الكتابة لشقيقها الذي يقضي عقوبة سجن طويلة، من أجل كشف ما يجهله من قصّة عائلتهما التعيسة.

باختصار، خمس رسائل تشكّل سلسلة من الاعترافات لن يقرأها في الواقع سوى قارئ الرواية، وتتجلى من خلالها شخصيات ملتبسة، غير امتثالية، تحمل أمراض المجتمعات التي تحاول الإفلات منها. شخصيات تتخبّط داخل عزلة مطبقة، في مرحلة انتقالية من حياتها، وتعاني من حالة ضياع داخلي وخارجي. شخصيات تستحضر ماضيها، مسيرتها والأفعال التي ارتكبتها، من دون ندم، فقط بدافع التيقّن والتسجيل، ووحده القارئ قادر على قياس ضيق، لا بل رعب حيواتها ووضعها.

لكن من خلال هذه الشخصيات، عمَّن تتحدّث هدى بركات تحديداً في نصّها المبلبِل؟ عن المهاجرين والمنفيين أولاً الذين يتواجهون مع البؤس الاجتماعي حيثما حلّوا، وأيضاً مع مشاكلهم الخاصة ومِحَن مجتمعاتهم الأولى، وعن عالمنا عموماً الذي بات يتعذّر على البشر التواصل فيه على رغم تشبّعه بوسائل الاتصال. وفي هذا السياق، تصوّر لنا بدقّة وبصيرة، بشرية في حالة يرثى لها، رجالاً ونساءً تعساء وسيرورة انحدارهم الأخلاقي، أشخاصاً يغادرون أوطانهم بحثاً عن حياة أفضل، ليتبيّن لهم بسرعة أن البشاعة في كل مكان، ومجتمعات لا أحد فيها يفهم الآخر، والجميع يبدو عالقاً داخل عالمه المغلَق والعنيف.

منفيّون

رجل إنساني نبيل من أصول برتغالية يهودية، تشاء الصُدَف أن يكون شبه الملّا إلى حد بعيد ومختصّاً بالأدب الفارسي. وكما لو أن ذلك لا يكفي، يتبيّن أيضاً لنا في منتصف السردية أنه ما زال وفياً لقصّة حب جميلة عاشها في صباه مع شابة إيرانية أثناء دراستها في باريس، قبل أن يفقدها بسبب عودتها إلى إيران بإيعاز من والدها.

وتشدّنا هذه السردية أولاً ببساطة اللغة التي يعتمدها بيربال لإيصالها إلينا؛ لغة ينعدم فيها أي تكلّف أو حذلقة أدبية مقصودة. تشدّنا أيضاً بنجاح صاحبها من خلالها في تصوير ما يكابده الفارّون من عنف شرقنا إلى مدن الغرب للبقاء على قيد الحياة والتأقلم في بيئتهم الجديدة؛ تأقلمٍ تعترضه صعوبات جمّة ويفرض على اللاجئ أو المنفيّ مراجعة كل مكتسباته الثقافية والهوياتية السابقة، وبالتالي تحوّلات في شخصيّته وقناعاته وسلوكه تارةً حميدة وتارةً وخيمة، كما سيحصل مع الملّا. تشدّنا هذه السردية أخيراً بالرسالة التي تسيّرها، ومفادها أن الشرق والغرب يتكاملان ويتجاذبان، وأن البشر عموماً يتشابهون كثيراً في العمق، على الرغم من الاختلافات الظاهرة التي تفرّق بينهم.

"اللاجئ يبقى لاجئاً سواء كان وزيراً أو مُلّا أو رسّاماً". هذه الجملة نقرأها في مطلع سردية "فندق أوروبا"، وتتجلى حقيقتها على طول هذا النصّ الذي وضعه الكاتب والرسام العراقي الكردي فرهاد بيربال بلغته الأم، وصدرت ترجمته الفرنسية حديثاً عن دار "موريس نادو" الباريسية.

الراوي الذي يلجأ بيربال إليه لسرد قصّه . ويشكّل صنواً له . هو رسّام من أصول كردية فرّ من اضطهاد نظام صدام حسين واستقرّ في العاصمة الفرنسية في الثمانينات. ولأن مدخوله من اللوحات النادرة التي يتمكّن من بيعها عن طريق صالة عرض باريسية لا يكفي لسد رمقه، نراه يعمل حارساً ليلياً في فندق "أوروبا". عملٌ يمنحه أيضاً الفرصة لمزاولة الرسم داخل الفندق، بعد منتصف الليل.

سردية الراوي تتقدم على ثلاثة خطوط متوازية: الخط الأول مرصود لمغامراته وتجاربه في باريس؛ الخط الثاني للقائه مع ملّا إيراني يدعى محمد حجّي زاده فرّ بدوره من وطنه بعد أن أبعده نظام الملالي من منصبه الديني المرموق في طهران بسبب مواقفه التقدّمية؛ لقاء يقود إلى صداقة عميقة ومؤثِّرة بينهما، وإلى سرد الراوي معاناة صديقه اليومية في مدينة لا ترحم مَن يقيم فيها بطريقة غير شرعية، مثله. الخط الثالث يستكشف العلاقة الجميلة التي ستنشأ بين الراوي وصاحب فندق "أوروبا"، وهو

مدينة الشارقة للنشر
Sharjah Publishing City

هيئة الشارقة للكتاب
Sharjah Book Authority

المنطقة الحرة التي تدعم
أعمال الطباعة والنشر حول العالم

spcfz.com